وقفات تأملية في ضوء
شرح رسالة المريد في قواطع الطريق
وأصوله وأمهاته للشيخ محمد بن عزوز البرجي

الأستاذة نجوى القاسمي الحسني

أولا التعريف بالمؤلّف: هو محمد بن أحمد بن يوسف بن عزوز البرجي، من صحراء الجنوب الجزائري في حدود 1170هـ، ينتهي نسبه إلى الإدريس الأكبر، ثم إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، ورضي الله عنها.

نشأ في دوحة الشرف، في حجر والده الولي الصالح سيّدي أحمد بن يوسف، الّذي هيّأ له السبل لحفظ القرآن وتحصيل العلم، ثمّ شدّ الرحال إلى الشيخ سيّدي محمد بن عبد الرحمان الأزهري[1]، فتكون على يده تكوينا علميا تربويا، قائما على التهذيب والاتّباع، مؤكّدا ذلك في قوله: "من جمع بين علم الظاهر وعلم الباطن يطير بجناحين"[2].

---

(1) هو محمد بن عبد الرحمان بن يوسف بن أبي القاسم الإدريسي الحسني، نسبة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء رضي الله عنها، ولد 1133هـ بقرية بوعلاوة، ونشأ ببلدة الزواوة، في وسط علمي تشد إليه الرحال وأخذ العلوم الشرعية من العلماء الراسخين المتفردين في الفقه ومذاهبه، كالشيخ علي بن أحمد المالكي، وأخذ تعاليم الطريقة الخلوتية عن الشيخ الحفناوي بالأزهر، وكان له قدم صدق في التربية، توفي 1208هـ، انظر: مصطفى باشتارزي القسنطيني (1870هـ)، المنح الربانية في بيان المنظومة الرحمانية، تونس المطبعة الرسمية 1307هـ: ص11؛ محمد بن الحاج محمد الهاملي (ت1913م)، الزهر الباسم في ترجمة الشيخ محمد بن أبي القاسم، تونس المطبعة الرسمية التونسية 1308هـ: ص 134؛ أبو القاسم الحفناوي (ت1942) تعريف الخلف برجال السلف الطبعة الأولى لبنان مؤسسة الرسالة 1982: ج2/ص457؛ ماجدة القاسمي الحسني، الذكر وآثاره التربوية الجزائر 2010م: ص 67، 69، 71، 72، 78، 80، 81.

(2) الأزهري، دفتر الدفاتر له مجموع رسائل الأزهري مخطوط بمكتبة زاوية الهامل غير مرقم: ص32.

وقد أوصاه شيخه بملازمة الشيخ عبد الرحمن باشتارزي[1]، المشهود له بالعلم والمعرفة، فعمل بوصيته، ولازم خدمة الشيخ حتى وافته المنية[2]؛ وبلغ على يده مبلغا كبيرا من التنسّك والتكمّل الخلقيّ، ممّا أهّله للقيام بدور الأستاذية بالفعال والمقال والحال، إذ كان آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، داعيا إلى السّلم والأمن، ساعيا إلى الصلح في كل حين، سائرا على نهج رسول الله ﷺ، مقتديا بالسنة عاملا بها[3]، يتأرجح بين الخوف والرجاء، لا يغيب عن ضوء الوعد، ولا يفارقه سوط الوعيد، معبّرا عن ذلك في دعائه: "اللّهم ارحمني إذا واراني التراب، وودّعنا الأحباب، وفارقنا النعيم، وانقطع النسيم، اللهمّ ارحمني إذا نسي اسمي وبلي جسمي، واندرس قبري وانقطع ذكرا، ولم يذكرني ذاكر، ولم يزرني زائر. اللهم ارحمني يوم تبلى السرائر وتبدو الضمائر، وتنصب الموازين وتنشر الدواوين، اللهم ارحمني إذا انفرد الفريقان، فريق في الجنة وفريق في السعير، فاجعلني يا ربّ من أهل الجنة، ولا تجعلني من أهل السعير، اللهمّ لا تجعل عيشي كدّا، ولا تجعل دعائي ردّا، ولا تجعلني لغيرك عبدا، إني لا أقول لك ضدّا ولا شريكا ولا ندا"[4].

ويعدّ محمد بن عزوز البرجي ناشرا للطريقة الرحمانية،[5] ورائدها في الجنوب الشرقي الجزائري، وفي وسطه، وفي الأوراس، وفي تونس، حتى أوشكت أن تسمّى الرحمانية

(1) هو عبد الرحمان بن أحمد بن حمودة باشتارزي، الجزائري منشأ، القسنطيني دارا، وهو أحد أركان التصوف علما وعملا وزهدا وتحقيقا، نشر الطريقة الرحمانية في قسنطينة، وصحب الأزهري الذي أخذ عنه علم الشريعة والطريقة. انظر: الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف: ج2/ ص205؛ ماجدة القاسمي الحسني، الذكر وآثاره التربوية: ص83.

(2) محمد الهاملي، الزهر الباسم: ص137.

(3) انظر: عبد الباقي، مفتاح أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، الجزائر 2005م: ص119، 120.

(4) انظر: عبد الباقي، مفتاح أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية: ص 120.

(5) الرحمانية طريقة صوفية جزائرية أصيلة، ظهرت في القرن الثاني عشر هجري، وتمثل معلما رئيسيا بارزا، وظاهرة دينية روحية واجتماعية وسياسية حاسمة في تاريخ الجزائر، تأسست مبادؤها على بعد معرفي تربوي، جمع بين

بالعزوزية، إذ انتهت إليه رئاسة الطريقة الخلوتية[1] في وقته، وتربية المريدين، وانتفع بصحبته وتتلمذ على يده بعض أكابر العلماء[2].

توفي رحمه الله سنة 1233هـ، بعد أن ترك آثارا قيّمة، منها رسائل كثيرة، تتعلق بتوجيهات المريدين، وكتاب شرح "تلخيص المفتاح" لجلال الدّين بن محمّد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني، المتوفّى عام 739هـ، لخّص في كتابه هذا القسم الثالث من كتاب "مفتاح العلوم"، ليوسف بن أبي بكر السكاكي. غير أن الشرح المذكور لابن عزوز كان في حكم المفقود، وتبقى أهمّ مؤلّفاته هو شرحه على نظمه "رسالة المريد في قواطع الطريق وسوالبه وأصوله وأمّهاته".

وهي رسالة في غاية الاتقان والكمال، وعلى جانب كبير من الدقّة والوضوح، شرحها شرحا كافيا للدّلالة على عظم مقامه العلمي والعملي[3]، ومنهجه في التسليك، القائم على التمسّك بأهداب الشريعة، والتحلّي بالتقوى، والصبر عند

منهج علم الباطن والظاهر، وانحصرت فيها أصول الوصول للتخلية في أصول مقاومة الاثم بالتوبة والمجاهدة والحزن والدعاء والخوف والرجاء، وأصول تثبيت التوبة بالورع والتقوى والزهد والصبر والشكر، وأصول الوصول للتحلية بالقناعة والرضا والتوكل. انظر: ماجدة القاسمي الحسني، الذكر وآثاره التربوية: ص 67، 143، 144، 145، 146، 147.

(1) الخلوتية طريقة صوفية كامتداد للسهروردية الجنيدية، تنسب لمحمد بن نور الخلوتي الخوارزمي الملقب بالخلوتي، وانتشرت انتشارا واسعا على يد صدر الدين الحياوي، مؤلف الحزب المعروف عند الخلوتية، وإلى الشيخ يحي المؤسس العملي لهذه الطريقة تنتهي كل فروع السلسة الخلوتية. انظر: عبد الباقي، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية: ص19.

(2) محمد الهاملي، الزهر الباسم: ص 137.

(3) انظر: الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف: ج2/ص482؛ كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين في تراجم مصنفي الكتب العربية –لبنان– دار احياء التراث العربي: ج10/ ص291؛ نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر الطبعة الأولى –لبنان– منشورات المكتب التجاري 1971م: ص 146؛ عبد الباقي، أضواء على الطريقة الرحمانية: ص121، 119.

البلاء، والشكر عند الرخاء، على نحو يحقّق التطهير والتهذيب، بعد الوقوف على القواطع التي تعترض المريد في سيره، والسوالب التي تحول بينه وبين المحلّ الأرفع والمقرّ السامي لأنّ التحلّي بما يجب، لا يتم إلا بعد التجرد مما لا يجب.

وهذه القضايا كلّها تضمنتها شرح رسالة المريد؛ وسنتعرض لها بالتفصيل بدءا بقواطع الطريق انتهاءا بأصوله.

ثانيا قواطع الطريق: ورد في المصباح المنير جمع قاطع أي مانع، وقيل قواطع: معناها قطاع الطرق اي لصوص[1]، وعرفها محمد بن عزوز اصطلاحا: جمع قاطع، وهو كل ما يقطع المسافر عن بلوغ مراده في سفره الحسي والمعنوي[2]، وانتهى به الأمر إلى حصرها في عشرة قواطع.

وقد عرضها في قالب صوفي عجيب، يوحي بذوق رفيع وبصيرة نافذة، تستجلي بواطن المعاني، وتضفي على الحياة سمات الجمال، بمدّ المريد ببرنامج دقيق، فيه تفصيل عميق للمعوقات والمثبّطات التي تعوقه عن السير وتعرقله عن الكمال الإنساني، وتصرفه عن معالي الأمور؛ وهي ما سنتحدث عنها لاحقا في عشرة قواطع، ابتداء من رؤية الأعمال، وانتهاءا بالاغترار بحلم الله وعفوه.

1) رؤية الأعمال: لأنها قد تجرّ صاحبها إلى العجب المحُبط للعمل، المانع عن بلوغ الأمل[3]؛ ولا عمل أرجى لحياة القلب من عمل يكون بالله، غائبا فيه عما سواه من الحظوظ والأهواء[4]، وهذا برؤية الله في كل شيء، حتى يكون فرحه بالطاعة، من

(1) الفيومي المقري، المصباح المنير مكتبة لبنان – مادة قطع-: ص194.

(2) انظر: ابن عزوز البرجي (ت1233هـ)، شرح رسالة المريد في قواطع الطريق وسوالبه وأصوله وأمّهات مخطوط بمكتبة زاوية الهامل: ص12.

(3) انظر: المصدر السابق: ص12.

(4) أحمد بن محمد بن عجيبة الحسيني (ت1224هـ)، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، مكتبة زهران: ص109 –

حيث شهودها من الله نعمة وفضلا، لا من حيث ظهورها من جهته بإرادته واختياره، واتّهام النفس في القيام بحقّها ورؤية تقصيره فيها[1]. وفي هذا المعنى، قال صاحب إيقاظ الهمم: "من علامات من تولاّه الله في أحواله أن يشهد أنّ التقصير في إخلاصه، والغفلة في أذكاره، والنقصان في صدقه، والفتور في مجاهدته"[2]، ولو كان قيامه بوظائف العبودية في غاية التّمام والكمال.

2) امتداد الأمل، لأنّه يبعث على الكسل وينسي العمل والأجل، ويلهي عن دار الخلود، ويتلف البركة في العمل، بسبب شواغل دار الزوال وعلائقها[3]، وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ النساء77.

ونبّهنا إليها صاحب الإحياء في قوله: "اجعل الهمّة في الروح، والهزيمة في النفس، والموت في البدن، لأنّ منزلك في القبر، وأهل المقابر ينتظرونك في كل لحظة متى تصل إليهم، إياك إياك أن تصل إليهم بلا زاد"[4].

فلا سبيل لتحريك العزيمة وإيقاظ الهمّة، إلا بتيقّن المريد بأنّ المبتغى الأصلي من هذه الحياة، هو الإيمان بالمبدأ والمعاد والاستعداد له، ومعرفة أنّ الدنيا أحقر من أن يملأ قلبه بها، أو يلوّث باطنه بأغيارها.

بتصرّف-

(1) انظر: أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن عباد النفري الرندي (ت792هـ)، غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية تحقيق عبد الحليم محمود بن شريف، - القاهرة – مكتبة الإيمان: ص128.

(2) ابن عجيبة الحسني، إيقاظ الهمم: ص110.

(3) انظر: ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص15.

(4- الغزالي أبو حامد (ت505ه) مجموعة رسائل الإمام الغزالي [أيها الولد] – القاهرة- دار التوفيقية للطباعة: ص277.

3) التشوّف إلى الكرامات والمشاهدات[1]، لأنّه آفة تخلّ برسم العبودية، وتقطع حبل الودّ، وتمنع المدد، وتجلب المقت والطرد، وهو ما تقرّر تأكيده على لسان صاحب الإحياء: "ثم المريد المتجرّد للذكر والفكر، قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح، بما ينكشف له من الأحوال، وما يبدو له من أوائل الكرامات، ومهما التفت إلى شيء من ذلك وشغلت به نفسه، كان ذلك فتورا في طريقه ووقوفا؛ بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمره، ملازمة العطشان الذي لا ترويه البحار ولو أفيضت عليه، ويدوم على ذلك، ورأسماله الانقطاع عن الخلق إلى الحقّ"[2]، وتفقّد أحوال النفس، والإخلاص وصدق النية، والتحقّق التام بحقائق الإسلام والإيمان والإحسان، وخلوص العبودية لله، والتماس الاستقامة، لأنها فوق أيّ كرامة.

4) الوقوف مع الواردات، لأنه يقدح في إخلاص عبادة المريد وصدق معاملته، ويؤدّي به إلى رؤية النفس والتلبّس بداء العجب والغرور، كرؤية الأنبياء وحور العين، أو جواز الصراط والدخول إلى الجنة[3]، وهو ما أكّده صاحب غيث المواهب في قوله: حجاب قلوب الخاصة المختصّة شهود النعم والتلذذ بالمنح والسكون إلى الكرامات، إذ قد تتجلى للسائر في سلوكه أنوار تبدو له أسرار، فإن أرادت همّته الوقوف عندما كشف لها، اعتقادا منها أنها وصلت إلى الغاية، نادتها حقائقها الباطنة إنما نحن فتنة فلا تكفر[4].

وفي هذه الحالة يتعين على المريد ألا يشغله العطاء عن المعطي، والسّبب عن المسبّب، والأثر عن المؤثر ولا تشغله النعمة عن المنعم، وجمال الأكوان عن المكوّن.

(1) انظر: ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص 15

(2) الغزالي أبو حامد (ت505هـ)، إحياء علوم الدين، -بيروت-، دار المعرفة: ج3/ ص78.

(3) انظر: ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص16.

(4) النفري أبو عبد الله، غيث المواهب العلية: ص281 -بتصرف-

5) الإقبال على الخلق والإدبار عن الحقّ[1]، لأنّ القلب ليس فيه إلا وجهة واحدة، ولو توجّهت مرآة قلب المريد إلى شيء، انعكس ذلك الشيء فيها، وانتقش في مرآة قلبه صور الخلق وأعمالهم، وحسناتهم وسيئاتهم، وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم؛ وإن لم يعرض عن ذلك فهو متلبّس بهذه الخواطر، منغرس فيها، ومحجوب بالخلق وأحوالهم عن الحقّ، وإن كان متعطّشا إلى زلال الوصال[2]؛ ولن يسلم من ذلك ما لم يهجر مجالس أبناء الدنيا، وينفرد عن الخلق بالقلب والقالب، ويتخلّص من مجاذبة الشيطان، ويقمع الشهوات الظاهرة والخواطر الباطنة، حتى يبقى مستغرقا في همّ واحد، هو أعظم المهمّات، من أدرك كنهه هانت عليه الهموم كلّها، وتضاءلت في قلبه جميع الاهتمامات فلا يبقى فيه إلا الرب الأكبر، لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ الأنعام 91.

6) سرور المريد بحلاوة الطاعة[3]، لأنّه لو ذاق حلاوة العبادة وتلذّذ بها، انصرف إليها وصارت مطلوبه وغايته، لا ينفكّ عنها ليلا أو نهارا، لا قياما للوفاء بها، وإنّما لما لمسه فيها من متعة وحلاوة، فيكون في الظاهر قائما لله، وفي الباطن قائما لحظّ نفسه[4]، معتمدا على أعماله، لا على الله، معتقدا أنها نتيجة جهده الخاصّ، لا بتوفيق من الله وعنايته. ولذلك قال صاحب إيقاظ الهمم: "علامة موت القلب ذكر الأعمال التي توجب حياته"[5]؛ بل ينبغي ألا ينظر إلى طاعاته وإن عظمت، ولا

---

(1) ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص16.

(2) انظر: قاسم بن صلاح الدين الخاني (ت1109هـ)، السير والسلوك إلى ملك الملوك دراسة وتحقيق سعيد عبد الفتاح، الطبعة الأولى – القاهرة- مكتبة الثقافة الدينية 2002م: ص207.

(3) ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص17.

(4) انظر: النفري، غيث المواهب العلية: ص167، 168.

(5) ابن عجيبة، ايقاظ الهمم: ص109.

يرضى عن أحواله وإن حسنت، ولا يغترّ بقرباته وإن كثرت، ولا يتردّد في تحسين أخلاقه وإن صلحت، ولا يعتمد على أعماله وإن اكتملت.

7) إهمال الورد، شغلا بالوارد[1]، لقوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ مريم59.

والورد في اللّغة العربية: هو الشرب: والوارد هو الطارق والقادم، وفي الاصطلاح: الورد عبارة عن أذكار وعبادات ظاهرة وباطنة، والوارد هو ما يرد على باطن العبد من نفحات ولطائف، فينشرح بها الصدر ويستنير بها القلب، والأول حق الخالق منك، والثاني حظك منه، فلا تكن ممن يطالب الله لنفسه، ولا يطالب نفسه لله؛ وإلا كنت واقفا مع حظوظك ونفسك، وقد ينتهي بك الأمر إلى إسقاط التكليف، بدعوى أن الغاية حصلت. فما جدوى التمسّك بالوسيلة، وما أدركت أن السلوك لا ينقطع إلا بالموت، والورد يختصّ بهذه الدار، ولا يقع إلا فيها، ولا ينقطع إلا بانقطاعها، ولا يفنى إلا بفنائها، ولا دخول للحقيقة إلاّ من باب الشريعة، وأيّ باب دونها مسدود[2]، والرجوع إليها مطلوب في كل حين، لأنّ الإنسان يبقى ضعيفا أمام سلطان الهوى والطبع، لا يأمن على نفسه من تحكّم الشهوات، وعودتها بعد طردها وقهرها، ولا سبيل للتوقّي من ذلك إلاّ بالاعتصام بالعلم الشرعي المحفّز للعمل، وعدم التراجع والتكاسل، عن طريق الاستكثار من النوافل والقربات.

8) اعتماد المريد على وعد الله واسترساله في رجاء كاذِب[3]، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ الرعد11.

وفي مثله قال الشاعر:

---

(1) انظر: ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص19.

(2) انظر: ابن عجيبة، ايقاظ الهمم: ص208، 209، 213.

(3) ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص20.

بقدر الكدّ تكتسب المعالي ومن طلب العلى سهر الليالي

تروم العلى ثم ترقد ليلا أتعبت نفسك في طلب المحال(1)

ويأخذ الرجاء الكاذب اسم امنية، وصاحبه كمن رمى البذر في أرض طيبة، ولم يتعهّدها بالسقي في انتظار نزول الغيث، وانتظار على هذا النحو يسمّى تمنّيا، ومن هنا يتجلّى لنا اسم الرجاء لا يصدق إلا على انتظار محبوب، تمهّده أسباب داخلة تحت اختيار العبد، ولا يبقى له بعد ذلك إلاّ ما لا يدخل تحت اختياره وهو كرم الله وفضله، بصرف القواطع والمفسدات، فلو بثّ العبد بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعة، ونقّى قلبه من شوك الآفات، وانتظر من فضل الله ما يثبّته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المؤدّية إلى المغفرة، كان انتظاره رجاءا حقيقيا، مقرونا بالعمل والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت، أمّا لو التفت إلى الدنيا وزخارفها، وأعرض عن الموافقات، ثم انتظر المغفرة، كان انتظاره حمقا وغرورا(2).

ومن هذا الوجه، فلا بدّ من الجدّ والاجتهاد؛ لأن كلّ من اجتهد وزرع حصد، ومن جدّ وسعى وجد، وما على العبد إلا البداية، ومن الله التمام والهداية.

9) إعتداد المريد برأيه، واعتماده عليه، ففيه ما يدلّ على سوء الأدب ورعونة في النفس وكثافة حجابها، واتّصافها بالزيف والبهتان(3)؛ وهي إن كانت جُبلت على النّفور من الأدب، فإن العبد مأمور بملازمته، لأنّ النفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، ولو أطلق عنانها صار شريكا في فسادها، ولو ردّها بجهده عن سوء المطالبة،

---

(1) أحمد بن مصطفى العلاوي، المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية طبعة أولى – مستغانم- المطبعة العلاوية 1994م: ص196.

(2) انظر: الغزالي أبو حامد (ت505هـ)، احياء علوم الدين – القاهرة- المكتبة التوفيقية: ج4/ ص198، 199.

(3) انظر: ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص22، 24.

تراجعت وارتدعت. ومن ذلك ما روي عن أحد الصالحين، أنّه قال: صلّيت العشاء وانشغلت بوردي ليلة من الليالي، ومددت رجلي في المحراب، فنوديت: أهكذا تجالس الملوك، فضممت رجلي ثم قلت: وعزّتك وجلالك لن أمدّ رجلي أبدا، ومكث أربعين سنة ما مدّ رجله فيها ليلا أو نهارا(1).

ومن هنا، يتعيّن على المريد عدم الانفراد بتقويم اعوجاج نفسه؛ لأنه قد يدخل في الأشياء بمراد ذاته، لا بمراد الله؛ فيحتاج في هذه الحالة إلى شيخ مربّ للنهوض بحاله، وتعريفه لله بمقاله وفعاله، وتنبيهاته الدقيقة، الدّالة على مدى استيعابه لاحتياجات المريد، سواء كانت تعليمية أو تربوية أو سلوكية، لقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الانبياء7.

10) اغترار المريد بحلم الله وعفوه(2)؛ إذ لا بدّ من النهوض في طلب المحبوب؛ وإلاّ كان عن الحضرة مطرودًا؛ وكيف يستطيع القعود من تحقّق لديه المقصود، بل المحقّق، كلّما ازداد معرفة، ازداد إدراكا بتقصيره في جنب الله، وتراكم حقوق الله عليه؛ وإن كان لا يصل بعمله، وإنما يصل بمحض الفضل، فهو مطالب بالاجتهاد، والوقوف على جادة الاستقامة والأسباب المفضية للاقتراب في الغالب. فعلى العبد تهيئة الأسباب، وعلى الله رفع الحجاب(3).

وهذا ما أكّده صاحب غيث المواهب، في قوله: طلب الجنة بلا عمل ذنب لا يغتفر، وارتجاء الشفاعة بلا سبب ضرب من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق، ولذا فأنت إلى حلمه إن أطعته أحوج منك إلى حلمه إن عصيته، لأنّه ليس في أفعال الحقّ، ما يستوجب منك أن تأمن عقابه؛ بل في أفعاله ما يمنع اليأس من رحمته،

(1) انظر: ابن عباد النفري، غيث المواهب العلية: ص149، 150؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص22.
(2) ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص 25.
(3) انظر: العلاوي، المواد الغيثية: ج2/ ص195، 198.

وكما لا يحسن أن يظهر من لطفه في خلقه، لا يحسن الطمع في جانبه، ويؤمن عقابه وانتقامه[1]؛ وهي الحقيقة التي يقرّرها القرآن، في قوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ فصلت23.

فكيف يأمن عقابه في الآجل، وهو لا يأمن عقابه في العاجل، وأكبر عقاب حسرة الطّرد وندم اللعنة وذلّ الحجاب؛ وأهون عليه نار الجمرة على نار الحسرة، وسعير الحساب على شؤم الحجاب، وسياط التعذيب على سياط التأنيب.

ثالثا السوالب: ورد في اللغة السوالب جمع سالب، أي آخذ، إذ نقول: سلبت منه ثوبه، فصار مسلوبا[2].

وحتى يضبط ابن عزوز معناها الاصطلاحي مع تحديد عدد السوالب، ذكر تعريف صاحب قواعد التصوّف في قوله: كلّ من ادّعى حالا مع الله، ثم ظهرت فيه إحدى السوالب الخمس، كاسترسال الجوارح في الذنوب، والطمع في الخلق[3]، وغيرها من الأعمال الظاهرة المرفوضة من الناحية الشرعية، والتي تنمّ عن سموم خفية قاتلة، كالحقد والحسد والبغض والقسوة والحدّة والأنانية وحب الدنيا والسخط وسوء الظن وحب الرئاسة والسلطان وغيرها من المهلكات، التي لو ابتلي بها العبد، لاعتقل في سجن الرغائب الهابطة، واصطدم بجدار العوائد الساقطة؛ وهي كما ذكرت سابقا خمس سوالب سأشرع في بيانها فيما يأتي لاحقا.

1) تلوّث الجوارح بالذنوب[4] وقد أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ الإسراء36.

(1) النفري، المواهب العلية: ص172، 237 –بتصرف–

(2) انظر: الفيومي، المصباح المنير – مادة سلب–: ص108.

(3) انظر: ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص26.

(4) انظر: المصدر السابق: ص26.

فالمطلوب من المريد تحرّي الأدب في الظاهر والباطن، فأدب السّمع انسداده عن اللغو والمنهيات، وأدب البصر إعراضه عن المخالفات، وأدب الباطن خلوّه من الحقد والحسد والبغض والرياء، وأدب البطن خلوّه من الحرام، وأدب اللسان تنزّهه عن الفظاظة والتعنيف وفحش الكلام، وعلى قدر نور الباطن يكون نور الظاهر، وعلى قدر نور الحقيقة يكون نور الشريعة.

2) التصنّع بطاعة الله للخلق[1]، وقد أشار إلى ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ الماعون4-6، ووجود الرياء علامة على عدم استحضار الرقابة، وانعدام الإخلاص؛ ولا نجاة لك مما أنت عليه إلاّ إذا غاب عنك الخلق في شهود الحقّ، وقيل في هذا المعنى:

فمن نظر الخلق بالخلق   عزيه عمى البصيرة
ومن نظر الحق بالحق   صادف علاج السريرة[2]

فعلى العبد كتمان طاعته، وإخفاء حاله، قدر الإمكان، حتى لا تسلب منه خصوصيته؛ فقد عرف رجال يكون أحدهم مع رأس امرأته على وسادة واحدة، وقد أغرقها في بحر دموعه، دون علم امرأته؛ وعرف رجال يقوم أحدهم في الصفّ، فتسيل دموعه على خدّه، دون أن يشعر به الّذي إلى جنبه.

فمبنى أمر المريد في بداية الطريق، قائم على الانفراد بالملك الحق، والفرار من الخلق، وإخفاء الأعمال، وكتمان الأحوال، والاكتفاء بعلم الله وشهوده، تثبيتا لزهده، وحرصا على سلامة قلبه، وحبّا في إخلاص عمله، إلى أن يتمكّن منه اليقين، ويبلغ الرسوخ

(1) انظر: المصدر السابق: ص 26، 27.

(2) العلاوي، المواد الغيثية: ج2/ص58.

والتمكين؛ عندئذ يجوز له إظهار ما ستره[1]، ليس من باب الرياء، وإنما من باب الاقتداء بهديه واقتفاء أثره؛ وهي المرحلة التي إن وصل إليها المقرّب يتساوى فيها عنده كتمان أحواله أو الافصاح عنها، وإقبال الخلق ومدحهم، أو إدبارهم وذمّهم.

3) الطمع في الخلق[2]، لأنه ينشأ من عدم الثقة بالخالق، والشكّ في قسمته وعدله وحكمته، ويدلّ على تعلّق صاحبه بالحطام البالي والعزّ الفاني، ومن أعرض عن الأعراض تنزّها، فهو الحكيم المتأدّب[3]، ومن أقبل عليها ابتلي بالذلّ، ووقع أسيرا في شراكها؛ ولذلك قيل: "لا يطمع في الخلق إلا محجوب، ولا يشكّ في الخالق إلا مسلوب"[4]، والمسعود من لاذ بجانبه، ووقف عند بابه، والتحق بأحبابه، وانتمى إلى أحزابه، فزالت أنكاده وأحزانه.

4) الوقيعة في أهل الحقّ وسوء الظنّ بهم[5]، والسعي للحط من شأنهم. فليحذر المريد من ذلك، ويفرّ منه فراره من الأسد؛ لأن لحوم الأولياء والعلماء والصالحين سموم قاتلة، والله غيور على أهل نسبته[6]، والويل ثم الويل لمن جاء في طريقهم وقدح في مسيرتهم، وهذا يقتضي من المريد السعي لإدراك خصوصية شيخه؛ لأن كلّ من اكتفى بالنظر إلى ظاهره، ولم يخترق شهود الباطن لا يحصل له ابتهاج؛ بل لا تزيده تلك النظرة إلا استغراقا في سوء الظنّ به؛ وهي آفة تورث الحجاب عن رؤية

---

(1) النفري، غيث المواهب العلية: ص265، 267 –بتصرف–

(2) ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص27.

(3) العلاوي، المواد الغيثية: ج2/ص50 –بتصرف–

(4) المصدر السابق: ج2/ص31.

(5) انظر: ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص27.

(6) انظر: ابن عجيبة الحسيني، ايقاظ الهمم: ص136؛ عبد الله بن علوي بن حسن العطاس (ت1334هـ) ظهور الحقائق في بيان الطرائق –القاهرة– دار الأصول 2004: ص285؛ العلاوي، المواد الغيثية: ج2/ص171.

الأحباب؛ ومن شأنه أن يرى كل خير أصابه من الله، إنما هو ببركة أستاذه؛ لأن نور كل مريد مشتّق من نور أستاذه، وما يراه في نفسه من مدد، فهو من فيض أستاذه، وكلّ ما يراه في ذاته من نقص فهو صفته تنسب إليه وحده؛ فلو رأى العارفين زنادقة، فهو زنديق في الغيب الأزلي، لأنّ صورة الأستاذ الناطق مرآة سرّ المريد الصادق، وقد قال أحد المريدين لشيخه: يا سيّدي رأيت وجهك الليلة خنزيرًا، فقال: صدقت يا ولدي فإني مرآة الوجود؛ فرأيت وجهك في فحسبت أنك أنا، فطهّر نفسك ثم انظر إلي تجدني غير خنزير[1].

ومن هنا، يتّضح أن جهل عامّة الناس بحقيقة العارفين وخصوصيتهم، هو ما جعلهم يحرمون من بركاتهم، والانتفاع بمعارفهم وفيوضاتهم، والاقتباس من أنوارهم، والوقوف على أسرار بواطنهم.

5) إلحاق الأذى بالمسلمين، وعدم احترامهم، والانتقاص من شأنهم، وانتهاك حرمتهم، حاضرين أو غائبين[2]؛ وكل ذلك منهي عنه، بالنصّ القرآني، لقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ الحجرات 11.

مع العلم أنّ الانتساب يوحي بعظمة المنتسب إليه والمنتسب فيه في نظر المنتسب؛ ومن ثمّة لزم احترام المنتسب لجناب الله، بأيّ وجه كان، وعلى أيّ وجه كان، ما لم يأت بما ينتقص من شأنه، كمخالفة شرعية صريحة، لأجل هذا تضرّر الكثير ممن

(1) انظر: عبد الوهاب الشعراني (ت973هـ) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية حققه وقدم له طه عبد الباقي سرور، السيد محمد عيد الشافعي – بيروت- مكتبة المعارف 1405هـ: ج2/ ص13، 14.

(2) انظر: ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص27.

تعرّض للاعتراض على المنتسبين لجناب الله، وإن كانوا محقّين، لأنّ الحقّ يغار لهتك جنابه[1].

والأفضل في مثل هذه الأحوال التزام الصمت، لأنه سكّة النجاة، ومرفأ السلامة من أيّ داء أو بلاء، وحرز حريز للسان عظيم الخلل كثير الزلل؛ إذ قد يقع في السبّ والشتم وفحش القول، والكذب والغيبة والسخرية والاستهزاء، وهتك العورات، والكلمة الجارحة، سواء صدرت من الفم، أو تلقّاها السمع، قتلت معنويات صاحبها، وخاصّة أنّنا نعيش زمنا، اهتزّت فيه النفوس، وقست فيه القلوب؛ فما أحوجنا إلى كلمات تسقيها بعد جفاف وجفاء، وتحييها بعد ممات وفناء.

والكلام عن الصمت يقودنا إلى الحديث عن أمّهات الطريق، باعتباره ركنا من أركانه.

رابعا أمّهات الطريق: وهو ما يبني عليه المريد أموره[2] كالتحلّي بالتقوى، وتهيئة الأسباب المكمّلة له، واليقظة المستمرّة، وصحبة العلماء والصالحين، وإعطاء الأوقات ما يلزمها من حقوق، والابتعاد عن التكلّف، وغيرها من أمّهات الطريق؛ وهي في مجموعها عشرة؛ وتأتي عقب إزالة ما لا ينبغي كشرط أساسي لتفريغ المحلّ من المذمومات، وتعميره بما ينبغي من المحمودات؛ وهو ما سنتناول ذكره فيما يلي:

1- ملازمة التقوى[3]: ويكفي لبيان فضيلته أن جعله القرآن مقياس التفاضل بين البشر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ الحجرات13، وورد في

(1) زروق ابو العباس أحمد بن محمد البرنسي (ت899هـ)، قواعد التصوف الطبعة الثانية – مصر- مكتبة الكليات الأزهرية 1976م –قاعدة 150-: ص93، 94 – بتصرف-

(2) انظر: أحمد بن محمد بن عباد المحلي الشافعي (ت1153هـ)، المفاخر العلية في المآثر الشاذلية مطبعة الفجر الجديد: ص120؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص28.

(3) ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص28

تفسيرها ما يوضّح معنى التقوى، في الجامع لأحكام القرآن: "معناها مراعاة حدود الله أمرا ونهيا، والاتّصاف بما أمرك أن تتّصف به، والتنزّه عما نهاك عنه"[(1)]، فهو قوّة ناجمة عن التوبة، دافعة إلى الخير، مانعة عن الشر، باعثة على الورع والاستقامة، كما عبّر عن ذلك صاحب الذروة الشريفة، في قوله: هو صون القالب من التلبّس بالمحرّمات، والقلب من التورّط في الشبهات والمكروهات، والتعلّق بالأسباب والمخلوقات، وتعميره بالمحبّة؛ وهو نتيجة التوبة، وبه يحصل الورع والاستقامة[(2)].

ويمتدّ هذا المعنى عند الأزهري، مؤكّدا بأنّ مخالفة النفس من لوازم التقوى، في تنصيصه: "التقوى صيانة النفس عمّا تستحقّ به العقوبة، وتجنّب القبيح خشية من الله تعالى بالتحرّز بطاعة الله عن مخالفته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ وكل ذلك يستلزم مخالفة النفس"[(3)].

وكلّما قويت جرعة التقوى في أعماق المريد، تخلّص من حبّ العاجلة، وتعلّق بالآجلة، وبدا له قبح الأولى ووضاعتها، وحسن الثانية ونفاستها، وتيقّن بأن حلاوة الفانية مرارة الباقية، عندئذ يقنع بالقليل ويرضى بالزهيد ولا يقنط على البعيد.

2- العمل بالأسباب المكمّلة للتقوى[(4)] المدعّمة له؛ وهذا بتطبيق أركان الطريق، كالجوع والسهر والصمت والعزلة، التي يحتاج إليها المريد لمصارعة من يتربّص به من

---

(1) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن – بيروت- دار إحياء التراث العربي 1966م: ج16/ص345.

(2) الخروبي محمد بن علي الطرابلسي (ت963هـ) الذروة الشريفة في أصول الطريقة الشاذلية مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر رقم8275: ص147 –ب تصرف-

(3) الأزهري (ت1208هـ) شرح علي الريفاوي شرحه على رسالة مسماة بمطلع (قوتة قولي) لصاحبها الريفاوي، انتهى منه سنة 1172هـ، وتم نسخه 1282هـ مخطوط بالهامل مكتبة الزاوية رقم 28: ص46.

(4) انظر: ابن عباد، المفاخر العلية: ص121؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص29.

الأعداء، كالشيطان والنفس والهوى والدنيا؛ إذ إنّ الشيطان سلاحه الشبع وسجنه الجوع، والهوى سلاحه الكلام وسجنه الصّمت، والدنيا سلاحها مخالطة الناس وسجنها العزلة، والنّفس سلاحها النّوم وسجنها السّهر(1).

ولكن التعامل مع هذه الأركان ينبغي أن يكون موزونا بميزان عادل، وبقدر يجلب المنفعة، ويدفع المفسدة؛ فلا يأكل المريد حتّى يجوع، وإن أكل لا يشبع، ولا ينام إلاّ على غلبة، وبقدر يبعث الراحة على البدن، ويقوّيه على العبادة؛ ولا يتكلّم إلا عند الضرورة، ولا يخالط الناس إلا لحاجة ملحّة، كتحقيق منفعة أو تأدية واجب أو دفع منكر.

3- التيقّظ لموارد الأشياء ومصادرها(2)، وهو ما أدلى به صاحب المفاخر العلية وابن عزوز، في تنصيصهما: "أوصاني حبيبي ألا تنقل قدميك إلاّ حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبا من معصية الله، ولا تصاحب إلاّ من تستعين به على طاعة الله، ولا تصطفي لنفسك إلا ما تزداد به يقينا بالله"(3).

ويتمّ هذا بصرف الفكر إلى مراقبة أعمال الجوارح الظاهرة، وتفقّد أحوال الجوارح الباطنة، والوقوف مع النفس موقف الحارس الأمين، الّذي يحميها من الشواغل الصارفة عن القرب، والحسيب الرقيب، الّذي يؤاخذها في الحركات والسكنات، ويتابعها في القليل والكثير.

4- صحبة أهل المعرفة(4)، لضبط النفس بأصل تعود إليه في العلم والعمل، حتى

(1) ابن عباد، المفاخر العلية: ص147 –بتصرف–

(2) ابن عباد، المفاخر العلية: ص121؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص30.

(3) ابن عباد، المفاخر العلية: ص112؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص30.

(4) ابن عباد، المفاخر العلية: ص121؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص30.

يمنعها من التشعّب والتشعّث[1] ولا غرو في ذلك، لأنّ كلّ العلوم الدنيوية يشرف عليها خبراء مختصّون في الكشف عن حقائقها؛ وجميع العلوم الشرعية، تحتاج إلى علماء متمرّسين فيها، كالفقه والتفسير والعقيدة وعلم القراءات. ومن هنا، فلا بدّ للمريد من المرور بفترة تربّصية، تحت إشراف شيخ مرشد متحقّق لمعاني الإسلام والإيمان والإحسان، لأنّ "سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة؛ فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة"[2]

وقيل في هذا المعنى:

يقول: هل اتخاذ الشيـ   خ محتوم على القاصد؟
فقلت: وهل تربّي قـ   ـط مولود بلا والد؟
وهل يُتم اليتيم كفا   ه فاستغنى عن الرافد؟
وهل أبصرت مكفو   فا ولا يحتاج للقائد؟
وهل علم وهل   فن بغير المرشد الراشد؟
وكيف يسير في الصحراء   غريب أعزل وافد؟
وباب الله   مفتوح ولكن من هو الرائد[3]

(1) زروق، قواعد التصوف – ق66-: ص39 - بتصرف-

(2) الغزالي، الإحياء: ج3/ص75.

(3) محمد زكي إبراهيم، أبجدية التصوف الإسلامي بعض ما له وما عليه الطبعة الخامسة – القاهرة- مؤسسة احياء التراث العربي: ص138.

ولا يتبوّأ مرتبة الإرشاد ما لم يتوفّر لديه علم صحيح وذوق صريح، وهمّة عالية قادرة على رفع همم المريدين من الدنوّ إلى العلى، لأنّ همة المريد من همّة شيخه، وبصيرة نافذة[1] تدرك تماما ما يليق لأيّ شخص من دواء لكل داء.

والمريد من جهته ملزم بجملة من الأدبيات، حتى تنشأ بينهما ألفة روحية، تجعل منه جزءا من الشيخ، ممّا يخوله الولوج إلى عالم الملكوت[2]، كاتّباع أمره دون تردّد، وتجنّب نهيه، وإن كان فيه حتفه، وحفظ حرمته، حاضرا وغائبا، حيّا وميّتا، والقيام بحقوقه، قدر الإمكان، بدون تقصير؛ ولا يستخدم عقله أو مكانته الاجتماعية، إلا بالقدر الّذي يناسب شيخه[3].

وقد قيل في هذا المعنى:

ما لذّة العيش إلا صحبة الفقراء ... هم السّلاطين والسّادة والأمرا
فاصحبهمُ وتأدّب في مجالسهم ... وخلّ حظك، مهما خلّفوك ورا
واغتنم الوقت واحضر دائما معهم ... واعلم بأن الرضا يحظى لمن حضرا
ولازم الصمت إلاّ إن سئلت فقل ... لا علم عندي، وكن بالجهل مستترا
ولا تر العيب إلاّ فيك معتقدا ... عيبا بدا بيّنا لكنه استترا
وحطّ رأسك واستغفر بلا سبب ... وقف على قدم الإنصاف معتذرا

---

(1) انظر: الخروبي، الذروة الشريفة: ص158، 159؛ ابن عباد، المفاخر العلية: ص120؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص31، 32.

(2) انظر: السهروردي (ت563)، عوارف المعارف ضمن مجموعة من الكتب [تعريف الأحياء بفضائل الإحياء الإملاء عن اشكالات الإحياء] رتبه محمود سعيد ممدوح – بيروت- دار المعرفة 1404هـ: ص73، 74.

(3) انظر: ابن عباد، المفاخر العلية: ص120؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص32.

قوم كرام السجايا، حيثما جلسوا يبقى المكان على آثارهم عطرا[1]

فمتى ربط المريد الصادق قلبه بالشيخ، وتأدّب بآدابه الظاهرة والباطنة، سرى المدد الباطني من قلب الشيخ إلى قلب المريد، كأنه سراج يقتبس من سراج. أمّا لو وجد المدد قلبا مدنّسا عاد من حيث جاء[2].

وهذا المدد إذا لم يكن مرتبطا بالمصدر الأصلي متّصلا بالمنبع الأول، انقطع تياره الكهربائي، واختفى نوره وحلّ محلّه الظلام.

5- مجانبة الأضداد من أهل الغفلة، كالقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين، والجبابرة الغافلين[3]. فليحذر المريد من مجالسة هؤلاء، لأنّ الطبع يسرق الطبع، والمجالسة تؤدّي إلى المجانسة؛ وهو ما أكّده الحديث، في قوله ﷺ: "مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير"[4].

فلو جالست مهموما، لانتقل إليك مرضه، وصرت مهموما مثله؛ ولو اجتمعت بساخط ناقم، لسرى إليك سمّه، ولو عاشرت مذنبا، لكدّرك بلوثة ذنوبه، لأن الظلام يخرج من القلب إلى القالب، ثم ينتشر فيما حوله.

---

(1) ابن عطاء الله السكندري (ت709هـ)عنوان التوفيق في آداب الطريق، الطبعة الأولى – بيروت- دار الكتب العلمية 1424هـ: ص89.

(2) أحمد بن عجيبة، الجواهر العجيبة جمع وتقديم وتصحيح عبد السلام العمراني الخالدي الطبعة الأولى – بيروت- دار الكتب العلمية 2004م: ص103 –بتصرف-

(3) ابن عباد، المفاخر العلية: ص122؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص32.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي بردة بن عبد الله: كتاب البيوع/ باب في العطار وبيع المسك: ص338. انظر: البخاري أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت256هـ) صحيح البخاري – الجزائر- دار الهدى للطباعة والنشر 1992.

ولو صاحبت ذاكرا، لصرت مثله من الذاكرين، ولو جالست إماما ربّانيا، لتعطّرت بعطره، والتحقت بركبه، فكنت من القوم الّذي لا يشقى جليسهم؛ وفي هذا الصدد، قال صاحب إيقاظ الهمم: "إصحب من يدلّك على الله مقاله، يتكلم بالله، ويدلّ على الله؛ وإذا سكت مقاله بصرك حاله، وحاله يصدّق مقاله(1).

وقد دلّ كلامه أنه يستحسن فيمن كان أهلا للصّحبة أن يجتمع فيه الحال والمقال؛ لأنّهما متلازمان، لا ينفكّ أحدهما عن الآخر؛ بل ربما كان حاله أبلغ من لسانه، وأفصح من كلامه؛ لأنّ تأثير المشاهدة أكبر من تأثير السّمع، وملامح الأسرة تكشف عن خفايا السريرة، وأحوال القالب تترجم حقائق القلب.

ومن وصل هذه الرتبة لا يحتاج إلى الفرار من أصحاب السّوء، لأنه يؤثر ولا يتأثر، ويصفو به كلّ شيء، ولا يكدّره شيء.

6- مراعاة الأدب مع الحق، لأنّ التصوّف كلّه آداب؛ لكل وقت أدب، ولكل مقام أدب، ولكل حال أدب. ومن لم يلزم آداب الأوقات والأحوال، لا يبلغ مبلغ الرجال، ومن تخلّى عن الأدب، فهو مطرود، من حيث يظنّ القرب، ومردود من حيث يعتقد الوصول(2)، ومن لم يتأدّب بأدب أهل البدايات، لا يبلغ مقامات أهل النهايات، ومن لم يحسن الأدب في الظاهر عوقب ظاهرا، ومن لم يحسن الأدب في الباطن عوقب باطنا(3)، ومن لم يراع الأدب مع الحقّ حجب عنه بسبعين حجابًا، ومن لا أدب له فلا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد(4).

---

(1) ابن عجيبة، ايقاظ الهمم: ص95.

(2) انظر: ابن عباد، غيث المواهب العلية: ص148؛ ابن عباد، المفاخر العلية: ص122؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص33.

(3) انظر: الغزالي، مجموعة رسائل الإمام الغزالي[روضة الطالبين]: ص107.

(4) الشعراني، الأنوار المقدسية: ج1/ ص57 – بتصرف-

وللفقير المتجرّد أربعة آداب، لو تخلّى عنها كان هو والتراب سواء: الرّحمة للأصاغر، والحرمة للأكابر، والإنصاف من النّفس، وترك الانتصاف لها، وللمتسبب أربعة آداب لو تجرّد منها لا يحقّ أن يعبأ به أحد، ولو كان أعلم الناس: مجانبة الظلمة، وإيثار أهل الآخرة، ومواساة أهل الفاقة، وملازمة الصلوات الخمس والجماعة.(1)

وأعظم الآداب وأكملها الدخول من باب الافتقار إلى الله، والوقوف على قدم الإفلاس، وعدم الاستئناس إلا بربّ الناس، ومراقبة الحواس من جميع الآفات، ومراعاة الأنفاس حتى لا يتخلّلها أي وسواس.

7- إعطاء الأوقات حقوقها(2)، لأنها لو فاتت لا تستدرك، ولا شيء يجعل العبد لا يغفل عن قيمة الوقت كالإحساس بدنوّ الأجل. ولذلك قال صاحب الحلية: "يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك، فإنّها عن قليل قبرك، إنك لم تزل في هدم عمرك، منذ سقطت من بطن أمك......إنما أنت أيام، كلّما ذهب يومك ذهب بعضك"(3)

ومن هنا، يتعيّن على المريد إعطاء كلّ وقت سهما من العبودية، خضوعا لحكم الربوبية؛ فإذا كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله الذي وفّقه لتأديتها؛ وإن كان وقته المعصية وجب عليه الإنابة والرجوع إلى الله، والإكثار من الاستغفار وأعمال البر، وإن كان وقته النّعمة، فسبيله شكر المنعم على نعمائه، وإن كان وقته البلية وجب عليه التحلّي بالصّبر، والرضا بقضاء الله، والاستسلام لحكمه.(4)

(1) انظر: ابن عباد، المفاخر العلية: ص122؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص33، 34.

(2) انظر: بن عباد، المفاخر العلية: ص122؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص35.

(3) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت430هـ) حلية الأولياء الطبعة الرابعة دار الكتاب العربي 1405هـ: مج2/ص155، 148.

(4) ابن عباد، المفاخر العلية: ص323، 324؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص35.

وهكذا فلكلّ عبادة مناخ ووقت يخصّها، كما للصلاة وقتها، وللصيام وقته، وللحج وقته، وللزكاة وقتها، فينبغي إعطاء كلّ وقت حقّه ونصيبه من العبادات، وفق ما جاءت به التعليمات الربانية.

8- عدم التكلّف في الحركات والأقوال والأفعال، وترك الأمور على طبيعتها، بعيدة عن التصنّع والمداهنة والرياء؛ فلا يتزيّن المرء تزيّن العروس؛ ولا يتبذّل ابتذال العبيد؛ ولا يكون حنظلا، حتى لا يرمى، ولا سكّرا حتى لا يبتلع[1]؛ بل يتوخّى الحكمة، ويراعي الاعتدال في كلّ شيء، لأنّه هو الميزان الصحيح الذي نضبط به الأقوال والأفعال، من حيث الإقدام والإحجام.

9- استشعار المريد رقابة الله، حتى لا يراه الله حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، أو يرى منه التفاتا لغيره[2]؛ وقد قيل في هذا المعنى:

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس ... واقنع بعزّ فإن العزّ في اليأس

واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم ... إن الغنيّ من استغنى عن الناس[3]

وقيل أيضا:

مالي سوى فقري إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك ربّي تضرّعي

ما لي سوى قرعي لبابك حيلة ... فلئن رددت فأيّ باب أقرع[4]

فكل من دخل إلى الله من باب الافتقار إليه أبدل ذلّه عزّا، وضعفه قوة، وكربه فرجا، وهمّه مسرّة، وعسره يسرا، ووحشته أنسا، وخيبته نصرا.

(1) انظر: ابن عباد، المفاخر العلية: ص124؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص36، 37.
(2) انظر: ابن عباد، المفاخر العلية: ص123؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص37.
(3) انظر: ابن عباد، المفاخر العلية: ص123؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص37، 38.
(4) ابن عجيبة، ايقاظ الهمم: ص483.

10- تذكير العبد بهول الموت ووحشة القبر ورهبة الموقف[1]؛ إذ لو لم يكن بين يديه كرب أو هول أو عذاب ما عدا سكرة الموت، لكان خليقا أن يتنغّص عيشه، ويتكدّر صفوه، وحقيقا بأن يطول تفكيره، ويعظم استعداده له، وحقّ لمن سيكون الموت موعده، والتراب مرقده، والدّود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه، وبطن الأرض مستقرّه، والجنّة أو النار مورده، ألاّ يكون له فكر إلا الموت، ولا ذكر إلاّ له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا انشغال إلاّ به، ولا تدبير إلاّ فيه، ولا تطلّع إلاّ إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اعتناء إلا به، ولا حول إلا حوله، ولا تربّص إلاّ له، ولا يعدّ نفسه إلاّ من أصحاب[2] القبور كما قال عليه الصلاة والسّلام: "كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل"[3] لأنّ كل ما هو آت قريب، والبعيد ما ليس بآت، فليت شعري كيف يكون الزاد يوم المغيب؛ وكيف تكون العدّة يوم الرحيل؛ فاجعل نصب عينيك ساعة الموت، لأنّه أشدّ من ضرب السيوف ونشر المناشير وقرض المقاريض. أمّا عقلك فيشوّشه، أمّا لسانك فيبكمه، أمّا أطرافك فيضعفها، تودّ لو تستريح بالأنين والصياح والاستغاثة، فلا تقدر على ذلك؛ ولو بقيت فيك قوّة، لسمعت عند نزع الروح وجذبها غرغرة من حلقك، فيتغيّر لونك وتصير كلون التراب، الذي هو أصل فطرتك، فيتقلّص لسانك، ويموت كلّ عضو من أعضائك بالتدريج، فتبرد قدماك ثم ساقاك ثم فخذاك، ولكلّ عضو فيك سكرة، وكربة بعد كربة، حتى

(1) انظر: ابن عباد، المفاخر العلية: ص124، 125؛ ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص38، 39.

(2) انظر: الغزالي، الإحياء: ج4/ص168، 461، 448.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر: كتاب الرقاق/ باب قول النبي كن في الدنيا كأنك غريب.....: ج5/ص2358. انظر: البخاري أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت256هـ) –بيروت- المكتبة الثقافية 1992م

يبلغ الحلقوم. عند ذلك ينقطع نظرك عن الدنيا وأهلها، ويسدّ عنك باب التوبة، فتكتنفك الحسرات والزفرات، في يوم عظيم شأنه، قاهر سلطانه، قريب أوانه[1].

وكلّما جددت ذكر ذلك واضعا نصب عينيك لافتة مكتوبًا عليها أنا عابر سبيل، لا أدري متى الرحيل، والزاد قليل، والحمل ثقيل، إلاّ أن يرحمني ربّ جليل، وكلّما لازمت التفكر والإمعان في هذه الأحوال، قلّ فرحك وسرورك، وزال كبرك وبطرك، وازداد حزنك وصفاؤك، وانكسر فؤادك، وامتلأ باطنك، إخباتا وتذلّلا، ليكون ذلك مستحثّا على الاستعداد ليوم اللقاء. فتعمل في أيام قصيرة المدى، لأيام طويلة لا نهاية لها، تنال بسببها ربحا كثيرا، وعزّا وفيرا.

خامسا أصول الطريق: ورد في التعريف اللغوي: الأصول جمع أصل، أي الشيء أسفله، وأساس الحائط أصله، ويقال: أصل كلّ شيء أي ما يستند إليه وجود ذلك الشيء[2].

ويؤيد هذا المعنى ما جاء في التعريف الاصطلاحي؛ إذ قال صاحب التعريفات: "الأصل هو ما يبنى عليه غيره"[3].

وتمثّل هذه الأصول الأرضية الصّلبة، التي ينطلق منها المريد في مسيرته الروحية، والمفاتيح الحقيقية التي يضبط من خلالها علاقته بالمكوّنات، ويحدّد استراتيجية موقفه عند المنح والمحن.

وبناء على ما سبق ذكره، يجدر بنا إلقاء نظرة عن هذه الأصول، للوقوف على مدى أهميتها في السلوك.

(1) الغزالي، الإحياء: ج4/ص461، 462، 515 –بتصرف-

(2) الفيومي، المصباح المنير: ص6 –بتصرف-

(3) الجرجاني (ت816هـ)، التعريفات حققه وقدم له ابراهيم الأبياري – بيروت- دار الكتاب العربي 2002م: ص30.

1- التقوى في السرّ والعلن[1] كما ثبت ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ آل عمران102.

وقد وضح صاحب «حدائق الحقائق» حقيقة التقوى في قوله: هو أن يطاع الله فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يُكفر[2].

وهو المفهوم الذي يؤكّده مدى ارتباط التقوى بالإحسان والشكر؛ إذ بقدر ما تتّضح قضية الإحسان في الجوانب القلبية والذوقية والعملية، وبقدر ما تتّضح مسالة التقوى في جوانبها القلبية والتصوّرية والسلوكية، وبقدر ما تتّضح قضية الشكر والقيام بحقوق العبودية كاملة لله شكرا، بقدر هذا كلّه يكون السير إلى الله صحيحا، لا سيما قضية التقوى، لأنها تمثّل مرحلة النّضج الكامل والمتفاعل مع الإسلام والإيمان والإحسان، وملكة قلبية، وسلوكًا وعلما وعملاً، ويتجسّد ذلك، عندما يحصل انسجام بين العقل والقلب والجوارح، وتفاعل بين القلوب والقوالب، ويصير العلن تعبيرا صريحا عن حقيقة السرّ، المنزّه عن التكلّف والتصنّع والنفاق والزور.

بل يسوق التحقّق بالتقوى إلى مقام الشكر؛ وهو أعلى مقامات السير إلى الله، ويغذّي الجانب العقدي، وينمّيه، ويبثّ فيه الروح، بإخراجه من دائرة التجريد إلى دائرة العاطفة والشعور الإيماني العالي، ويدعم الجانب التحقّيقي من علم العقائد؛ فيكمّل النّقص الذي كان يعانيه قبل مزج العقيدة بالتصوّف؛ ويسد الثغرات في الجوانب التعبدية؛ ويكمل الفقه بتنمية جانب الإخلاص، الذي يقوّي استعداد العبد وإرادته لإتمام العبادات، في غاية الإتقان، وعلى أكمل ما تكون، سالمة من أيّ آفة أو

(1) انظر: ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص41.

(2) محمد بن ابي بكر عبد القادر شمس الدين الرازي (ت660هـ)، حدائق الحقائق تحقيق وتقديم سعيد عبد الفتاح الطبعة الأولى –القاهرة- مكتبة الثقافة الدينية 1422هـ: ص122 –بتصرف-

عيب[1]؛ وهو ما أكّده صاحب الإحياء في قوله: "إنّ حضور القلب هو روح الصلاة.... ومهما خشع الباطن خشع الظاهر"[2].

وعلى نفس المنوال نسج صاحب الذروة الشريفة: "تقوى حفظ الجوارح من المخالفات، اتّقاء سخط الله، فوجب عندهم حفظ الجوارح التي هي اليدان والرجلان والأذنان واللّسان؛ والباطنة، وهو القلب، من جميع المعاصي والمخالفات. فإذا حفظت الجوارح من المعاصي عمرت بالطاعة وتقوى الله...تقوى حفظ السرّ ممّا سوى الله؛ فإذا تنزّه السرّ عن شهود الأغيار، منح شهود عظمة الذات"[3].

ثم أضاف ضرورة وجود التقوى في الظاهر والباطن، وإلاّ كانت الأعمال مدخولة، والأحوال معلولة، في قوله: "تقوى الله في السرّ والعلانية، ففي السرّ فيما أبطنه من الأحوال، وفي العلانية فيما أظهره من الأقوال والأفعال؛ إذ العبد مأمور بتقوى الله العظيم في ذلك كلّه، فأعمال بلا تقوى معلولة، وأحوال خالية منها مدخولة"[4].

ومن كلّ ما سبق يتّضح لنا أن التقوى يعلم صاحبها الحذر، قبل الشروع في القول والفعل، والحيطة حال صدورهما، والمحاسبة والتصحيح والتنقيح بعد صدورهما. وهذا بالرجوع إلى الباطن لتنقيته من علّة الرياء والنفاق، وتتبع الخواطر ومراقبتها؛ لأنها منبع الإرادة والأفعال.

2- اتباع السنة في القول والفعل[5]، استنادا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾آل عمران31.

(1) انظر: سعيد حوى، تربيتنا الروحية الطبعة السابعة دار السلام 2004م: ص26، 27.

(2) الغزالي، الإحياء: ج1/ ص247، 257.

(3) الخروبي، الذروة الشريفة: ص146، 147.

(4) المصدر السابق: ص146.

(5) ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص42 –بتصرف–

وعلامة محبّة الرسول عليه الصلاة والسلام اتّباع السنة، والعمل بما جاء به من شريعته، أمرا ونهيا، وإثباتا ونفيا. وحقيقة الاتّباع هي رؤية المتبوع، عند كلّ شيء، وفي كلّ شيء، ومع كلّ شيء،[1] وقبل كل شيء؛ كاتّباع أقواله من الناحية الاعتيادية، بملازمة أذكاره، في الصباح والمساء، وعند النوم واليقظة، وعند الأكل والشرب، وعند اللباس، وعند الدخول إلى المسجد أو البيت، وعند السفر، وعند كلّ فعل مخصوص من أفعاله، له فيه قول معلوم لزم الاقتداء به، وإتّباع أفعاله من الناحية التعبّدية كصلاته وصومه وحجه وطهره؛ والاعتيادية، كلباسه وعمامته وتنعّله وترجّله، وإزاره وخضابه وكحله وتعطّره، ومشيته وجلسته وضحكه وحجامته وأكله وشربه[2]، وإتّباع صفاته الحالية، كحلمه ورحمته، وبرّه وعدله، وشكره وصبره، وخوفه وورعه، وإخلاصه وتوكّله ورضاه، وهيبته وبشاشته، وكرمه وعطائه، وحكمته وحنكته، وحيائه ووفائه. فقد كان سيّد الناس وأحلم الناس وأشجع الناس، وأجود الناس، وأعدل الناس، وألين الناس كفّا، وأحسنهم لطفا، وأطيبهم ريحا ونفسا، وأكملهم معنًى وحسًّا، وأحسنهم عشرة وعشيرة، وأجملهم سيرة وسريرة، وأرأف النّاس بالنّاس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس"[3].

وجميع أخلاقه هي ثمرة التربية القرآنية، الّتي توحي بأنّ ربّه ربّاه فاجتباه، وتلقّاه فنقّاه ورقّاه، وسقاه علوم الأوّلين والآخرين، وحوّله إلى قرأن يمشي على الأرض، ينطق بأسراره، ويعمل تحت أنواره.

---

(1) الشعراني عبد الوهاب (ت973هـ) الطبقات الكبرى المسماة [لوائح الأنوار في طبقات الأخيار] الطبعة الثانية، دار الطباعة العامرة 1286هـ: ج1/ص6 –بتصرف-

(2) انظر: الخروبي، الذروة الشريفة: ص147.

(3) محمد بن جعفر الكتاني الادريسي الحسني (ت1345هـ) السفر الصوفي طبعة أولى –بيروت- دار الكتب العلمية 1426هـ: ص117.

3- إفراد الوجهة لله[1]، تحقيقا لمعنى قوله تعالى: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ الأنعام79.

وهذا شأن أهل الطريق، ودأبهم وشعارهم، لا ينفكون عنه، ولا يكلّون منه، والسرّ في ذلك أنّهم أدركوا بأنّ الرّوح لو ركنت إلى العالم السفلي، وتعلّقت بالوسائط، لتعذّر نقلها إلى العالم العلويّ، لما ألفته من حبّ الأهل والولد والأقارب وجميع العلائق؛ في حين لو تبرّم منها الكلّ وأعرض عنها، لضاقت عليها الأرض بما رحبت؛ ومتى ضاق عليها المكان، فرّت منه، وانطلقت إلى عوالم أخرى تبحث عن سرّ وجودها وحقيقة موجدها؛ عندئذ يتحقّق وصلها ووصالها؛ في حين لو نامت في بحبوحة العيش، ورقدت في ظلّ العزّ والجاه، لتعسّر رحيلها إلى موطنها الأصلي[2]، وهو المعنى الّذي يكشف سرّ الله في تسليط أذى الخلق على المريدين في بداية الطريق؛ كما عبّر عنها صاحب الحكم في قوله: "إنّما أجرى الأذى عليك منهم كي لا تكون ساكنا إليهم؛ أراد أن يزعجك عن كلّ شيء، حتىّ لا يشغلك عنه شيء....الخذلان كل الخذلان في أن تتفرّغ من الشواغل، ثم لا تتوجّه إليه وتقلّ عوائقك، ثم لا ترحل إليه"[3].

ومن هنا، يتّضح أنّ الشدائد والملمّات والإحساس بالضيم، في بداية الطريق، جسر قويّ، وباب تنفذ منه إلى حيث الوصول إلى الله؛ إذ يلهب في أعماقك مشاعر اليأس والفاقة والتذلّل عند أعتاب الرحمة الإلهية، والتضرع في محراب العبودية لله؛ ويرفع همّتك عن ملاحظة الأغيار والأثار، والالتفات إلى الأسباب والكثرة، حتى تصل إلى مستوى يجعلك لا تنشغل بالأثر عن المؤثّر، أو السّبب عن المسبّب، ولا تحجب بالخلق عن

---

(1) ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص43.

(2) انظر: ابن عجيبة، ايقاظ الهمم: ص393.

(3) ابن عباد، المواهب العلية: ص363، 398.

الحق أو بالحق عن الخلق؛ وهو مقام الأبطال الكمّل الذين لا يضرّهم التعامل مع الوسائط والممكنات لقوة تمكّنهم، ووقوفهم الدائم مع الله.

4- الرضا عن الله في القليل والكثير[1]، تأكيدًا لمعنى قوله عز وجل: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ البينة8.

وقد عرّفه ابن عزوز بمفهوم القناعة، وعدم التشوّف إلى الزيادة، في قوله: "وجود الرضا حال القلّة كحال الكثرة، وحال المنع كحال العطاء، دليل على أنّ الرضا واقع على غير علّة"[2].

وهو بهذا المفهوم يتضمّن معنى الزهد، الذي يجعل المريد ينظر إلى الأشياء بمقياس واحد، يتساوى فيه المفقود والموجود، والعسير واليسير، والفرح والترّح؛ وهو المقام الذي وصل إليه الحبيب المصطفى، ﷺ، وهو أعلى المقامات كلّها؛ لأنها حالة تستدعي أن تكون مشاهدته عند وجود الأسباب وفقدها على وتيرة واحدة، لاستغراقه في مطالعة مسبّب الأسباب؛ ومن كان هذا مقامه لا تضرّه الأسباب، إذ الرغبة في المال نقص، والرغبة عنه كراهية له، ولو كانت كمالا، لكان استواء وجود المال أو عدمه نقصا، فلا غرو بعد ذلك أن نقول استواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر، وكان حاله، ﷺ، في أعلى المراتب، المدر والذهب عنده سواء[3]، وأكل الشعير واللحم الطري سواء، والزواج والعزوف عنه سواء، لأن ساعة نيل الوطر، ما أنقصت من كمال روحه وشفافيتها شيئا، وما حجبت بشريته نور روحانيته، بل تحوّلت النار في حقّه نورا، كحال جدّه إبراهيم عليه السلام.

---

(1) ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص46.

(2) المصدر السابق: ص 46.

(3) انظر: الغزالي، الإحياء: ج4/ص 291، 292.

كما أنّ ساعة الاستجابة لداعي الطبع ما أبعدته عن حضرة ربه، لصحّة قلبه وإشراقه بنور ربه؛ وانشغال البدن بالحظوظ ما صرف قلبه عن النظر إلى المعبود؛ ورؤية الأكوان ما حجزته عن شهود الملك الديان؛ وقوّة جاذبية القالب وفتنته ما قيّدت الروح عن السباحة في عالم الملكوت، والسياحة في عالم الشهود.

5- الرجوع إلى الله في السّراء والضّراء، استنادا لقوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾الأنبياء35.

وحقيقة هذا الأصل، في رأي ابن عزوز، أن ترجع إلى الله في السّراء على سبيل الحمد والشكر، وفي الضراء، على سبيل الصبر[1]، لأنّ الدنيا دار التواء، لا دار استواء، ومنزل ترح لا فرح؛ والعبد فيها هدف لثلاثة أسهم، إمّا سهم بلية، أو رزية، أو منية؛ وليس فيها شيء محمود، فالمال مآله الزوال، والشباب نهايته الهرم، والصّحة يعقبها السقم، والفرح يتبعه الترح، والعزّ ينتهي إلى الذلّ، والحياة تنقضي بالممات، ومن عرفها بأنّها دار أهوال ومنزل فرقة وانتقال، لم يفرح لرخائها، ولم يحزن لبلائها؛ فإن داهمته نوازل قهرية، وأغيار جلالية، فلا يستغرب شيئا من تجلّيات الحق؛ لأنّ حكمة الله اقتضت أن تجعل الدنيا مزرعة لنيل حصاد الآخرة، وسببا لنيل نعيم الآجلة؛ فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي، بل الواجب على المريد معرفة الله في الجلال والجمال، في الحلوة والمرة، ولا يستقيم أمره إن كان لا يعرفه إلاّ في الجمال، والمعرفة تقتضي منه السكون والأدب، والرضا والتسليم، كعشب السمار، إن جاءته حملة الوادي نكس رأسه، وإن ذهبت رفعه. وكما لا يتعجّب من وقوع الأكدار، ولا يحزن منها ولا يخاف ولا يجزع، لا يتعجّب من وقوع السّراء فلا يفرح ولا يتجبّر، لأن الجمال مقرون بالجلال، والجلال مقرون بالجمال، يتعاقبان تعاقب الليل والنهار[2].

---

(1) ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص47 –بتصرف–

(2) انظر: ابن عجيبة، ايقاظ الهمم: ص71، 72.

ومن هنا، ندرك أنّ النعمة قد تكون مطلقة من جميع الوجوه، كنعيم لقاء الله في دار الخلد، ونعمة الإيمان والأخلاق وما يعين عليهما؛ وقد تكون مقيّدة من وجه دون وجه آخر؛ كالمال، فقد يصلح الدين من وجه، ويفسده من وجه آخر، وبالمثل البلاء، فقد يكون مطلقا، كالبعد عن الله في دار القرار، وفي الدنيا كالشرك والعصيان، وسوء الأخلاق المفضي إلى البلاء المطلق؛ وقد يكون مقيّدا، كالفقر والمرض وسائر أنواع الرزايا الدنيوية.

والعبد مأمور بتأدية واجب الشكر حال النعمة المطلقة، وغير مأمور بالصّبر حال البلاء المطلق، ومأمور به حال البلاء المقيّد، الذي لا سبيل لإزالته، فيجتمع فيه الألم والفرح، كمن تسقيه دواء مرًّا نافعا مجانا، فإنّه يتألّم ويفرح، فيصبر على الألم، ويشكر على سبب الفرح، وكلّ بلاء في الدنيا مثل الدّواء يؤلم في الحال وينفع في المآل[1].

وشكر المنعم على نعمائه يستوجب بقاءها والمزيد منها، والجحود والنكران يستوجب زوالها وانقطاعها[2].

ويبقى الشكر مرتبطا بالخوف من الاستدراج بالنعم، وهذا يستدعي منه رؤية المنعم لا النعمة، ولا يفرح بها المريد، من حيث إنها نعمة، بل من حيث إنها مطيّة للآخرة ومعينة عليها، ويحزن من كل نعمة قد تصرفه عن الله، وتشغله عن خدمته[3]، ولهذا، قال صاحب الحكم: "ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك"[4].

فقد يمنحك المال، ويحرمك نشوة العطاء، وقد يمنحك جمال الحسّ، ويحرمك جمال الروح؛ وقد يمنحك متعة الغنى، ويحرمك حلاوة القناعة؛ وقد يمنحك نعمة الجاه،

(1) انظر: الغزالي، الإحياء: ج4/ ص177، 181.

(2) انظر: ابن عزوز، شرح رسالة المريد: ص49.

(3) انظر: ابن عباد، غيث المواهب العلية: ص143، 145، 147.

(4) ابن عجيبة، ايقاظ الهمم: ص165.

ويحرمك لذة التواضع؛ وقد يمنحك إقبال الخلق عليك، ويحرمك إقباله عليك، وقد يمنحك أمن الدنيا، ويحرمك أمن الآخرة، وقد يمنحك النعمة، وينسيك شكر المنعم، وقد يمنحك العلم، ويحرمك ملازمة الخشية؛ وقد يمنحك العلم، ويحرمك مقصوده؛ وقد يمنحك العزّ المؤقّت ويحرمك العز المؤبّد، وقد يحرمك الغنى ويمنحك نعيم الرضا؛ وقد يحرمك لذّة النفوس، ويمنحك متعة الروح؛ وقد يحرمك سلطة الظاهر، ويمنحك سلطة الباطن؛ وقد يحرمك مظاهر الملك، ويمنحك أنوار الملكوت؛ وقد يحرمك سلامة الحواس، ويمنحك نقاء الأنفاس؛ وقد يحرمك صحّة البدن، ويمنحك أجر الصبر؛ وقد يحرمك نور البصر، ويمنحك نور البصيرة.

الخاتمة

نخلص في نهاية هذا البحث إلى النتائج الآتية:

- الشيخ ابن عزوز البرجي شخصية علمية صوفية متفرّدة، لديه القدرة على استبطان أحوال النفس البشرية وكشف خبايا آفاتها، للارتقاء بها إلى أعلى مراتب العبودية، وقد دلّ على ذلك رسالته التي تبرز إبداعه ودقّته في فهم أحوال النفس، وبراعته في تحديد قوانين التربية النفسية وأصول التطهير والتهذيب، مدعّمة بحكم ساطعة ناصعة تنير الدرب لكلّ من ضلّ السبيل منها ما يلي:

- عاطفة الوعد والرجاء دافعة إلى الطاعة، وعاطفة الخوف والوعيد مانعة عن المعصية، ولا يمكن الاقتصار على واحد دون الأخرى.

- لا خير في طاعة قد تؤدّي إلى معصية، ولا ضرر في معصية قد تؤدّي إلى طاعة.

- عدم ترك العمل لا يقتضي الاعتماد على العمل، والأخذ بالأسباب لا يعني عدم الاعتماد على مسبّب الأسباب.

- التمسّك بالوسيلة نضمن به بقاء الغاية، والتخلّي عن الوسيلة معناه التفريط في الغاية. ومن ثمّ، فلا مبرّر للتخلّي عن الورد، بحجة حصول الوارد، وإلاّ ضاع الوارد بتضييع الورد.

- لا يحقّ للمريد أن يركن إلى وعد الله، وينسى وعيده؛ ويعتمد على فضله وعفوه، وينسى قهره وجبروته، ويستأنس لحالة البسط، ويغفل عن حالة القبض.

- أكبر كرامة التطلّع إلى الإيمان، والعمل بمقتضى الإسلام، والسير على قدم سيد الأنام.
- بالأدب يحوز المريد المراد، وينال القرب لا البعاد، ويكافأ بالمنن والإمداد، ويظفر بالحب والوداد.
- التقوى أصل كلّ خير فيها تحفظ الجوارح الباطنة من الفواحش الخفية، وتصان الجوارح الظاهرة من الآثام الجلية.
- لا يتأدّب السمع إلا بالسموّ عن سماع اللغو والباطل؛ ولا يتأدّب البصر إلا بالترفّع عن النظر إلى المحرّمات، ولا يتأدّب اللسان إلاّ بالامتناع عن الخوض في الأعراض، ولا تتأدب اليد إلا بالكفّ عن المنهيات، والإقبال على المنجيات.
- ليست العبرة في التحليق في الهواء، إنما أن تقهر الهوى، وتنسى الشهوة، فتنجو من كل بلوى، وتفوز بالوصل بعد الجوى، وتتخلّص من آلام النوى.

وليست الغاية أن تخترق البحار، أو تجوب الأقطار؛ إنما الغاية أن تدوس على الأكدار، وتخترق الباطن وتحرّره من الأغيار. وليس المقصد أن ترتقي السماء، إنّما المقصد أن ترفع الهمة من الأكوان إلى مكوّن الأكوان؛ وتنظر إلى النفس بعين الاستصغار، وإلى الربّ بعين الإكبار؛ وتستسلم لحكم العزيز القهار.

لا يقتل الطمع إلا بسيف الزّهد والتوكّل والورع؛ ولا يذبح إلا بسكين القناعة، ولا يطفئ ناره إلا بردّ اليقين وماء الرضا بالقسمة والمكتوب.